مدرسة بدوام ثنائي

إشارة مرور .. شرطي بالبدلة الزرقاء .. سيارت تصطف بشكل أنيق .. بالجانب يقف ملعب الشعب بأعمدة الإضاءة العالية والنصب التذكاري للمنتخب الوطني بعد أن حقق لقب بطل آسيا عام ٢٠٠٧ .. قطع السكوت منبّه إحدى العجلات الواقفة .. فتح الضوء الأخضر ، انتقلت السيارات بين اليمين واليسار تسرع في سيرها كحصانٍ حُرر من لجامه.

□ بغداد/ وائل نعمة
□ عدسة/ أدهم يوسف

مدارس شرقيّ العاصمة.. زحام مميت!

١٧ قاعة مدرسية لـ١٢٠٠ تلميذ و٩٠ طفلاً في الصف الأول

السعي للذهاب الى شرق القناة حيث الاحياء الفقيرة والمنازل العشوائية يستحق العناء ، يشبه رحلة رجل فضاء الى كوكب غريب ، لم تطأه قدم انسان من كوكب الارض ، الشعور بأنك في آخر بقعة من بقاع الارض وبنهايتها ستسقط الى المجهول ، يعطيك احساس بالفخر لأنك أثبتّ عدم صحة نظرية ان "الارض كروية" ، مشاهد الطين الأسود (مياه المجاري) تجعلك تعتقد بأنك اكتشفت صخورا ومعادن غريبة على ارض هذا الكوكب.. تلال من النفايات تنتشر على طول الطريق ، وبعض من بيوت خربة (حواسم) ، يظهر من داخلها بؤس الحال ، أواني الطبخ الصدئة وأطفال بثيابٍ ممزقة يقفزون فوق أريكة قدمها مكسورة أسندت بطابوقة (جمهوري)، حتى العربات الخشبية التي تجرها الحيوانات تختلف عما موجود في كوكبنا .. الرجل الذي يقودها محني الظهر واندلقت "الجراوية" امام وجهه المجعّد ، عمره فوق السبعين ، رث الملابس ، يجلس بقربه طفل شاحب الوجه ، حافي القدمين يتعلّق بشبكة صنعها الرجل العجوز في آخر العربة بشكل عمودي يجمع داخلها كل انواع العلب المعدنية .. إنه (عتاك) الاسم الشائع على كوكبي للشخص الذي يبحث بين القمامة ويحمل كل ما رُمي في الشارع!

ماذا يحدث على ظهر هذا الكوكب؟

غريب أمر هذا الكوكب فالمناطق السكنية – إن صح التعبير – تحولت الى صناعية، وبأنشطة مختلفة ..(سكلات لمواد البناء ، الرمل ، والحصى ، وشيش البناء) يعتدي على البيوت وينتهك حرمتها ويصل الى السطوح .. أكشاك مؤقتة يجمع فيها كل شيء عتيق (سكراب) ، تفصيخ سيارات ، بقايا أجهزة كهربائية وأثاث مستعمل .

وقفنا جانباً لنسأل صاحب بسطية سكائر وضع لوحة خشبية ، رتّب فوقها مجموعة من علب الدخان ، كنا في نهاية منطقة العبيدي .. كانت نظراته تسرع قبل لسانه بسؤالنا " كيف أخدمكم ؟" ربما لم يكن مرتاحاً جدا للسيارة التي نزلنا منها لأنها عالية بعض الشيء وتشبه السيارات التي تلاحق المسؤول في موكبه الأسطوري – من دون تشبيه – والدليل اننا مررنا قبل دقائق من احدى نقاط التفتيش وبسبب الزحام مررنا بالخط او الطريق العسكري – كما يُسمى – والعنصر الأمني الذي يقف في نهايتها لم يسألنا عن (الباجات) – كما هي العادة –

الرجل في منتصف العمر ، صاحب البسطية ، أشار الى انهم منسيون في هذه الأحياء ، وأرشدنا الى مقصدنا وهي احدى مدارس منطقة حي النصر.

الصدمة الأولى كانت ...

بين الأزقة الضيّقة والمنازل المهدمة، في شوارع متعرجة تقطعها بنايات خربة بُنيت بشكل عرضي .. طرق محفّرة ومليئة بمياه البيوت التي حوّلت الشارع الى مخازن للمجاري .. اهتدينا في آخر المطاف الى بناية مدرسية اقل ما يقال عنها (آيلة للسقوط) ، سياج البناية قذر الى درجة لا يمكن ان تعرف لونه الحقيقي ، والنوافذ المطلّة على الشارع مكسورة ، سألنا احد رجال الشرطة القريبين من بوابة المدرسة عن سبب وقوفنا ؟ رفعنا رؤوسنا ، بينما نحضّر جوابا لسؤاله ، فوجدنا يافطتين قديمتين سقطت منها الحروف .. كُتب على الاولى مدرسة الايمان الابتدائية ، وبجوارها في اللوحة الثانية مدرسة الزهد الابتدائية. ذكرنا للشرطي بأننا نريد ان نساعد التلاميذ بكشف واقع مدرستهم السيئة الى الجهات الرسمية ليغيروا من حالها .. لم يكن بيده ان يقدم لنا أية مساعدة فالأمر منوط بالإدارة ، استطعنا اختراق البوابة الحديدية الصدئة ودخلنا البهو الامامي للمدرسة .. الصدمة كانت بأعداد التلاميذ في داخل البناية ، الدوام الصباحي لمدرسة الزهد ، وهي ضيفة على مدرسة الايمان (الاصلية) يربو عدد تلاميذها على الـ١٢٠٠ يحشرون في سبع عشرة قاعة دراسية ، لا يزيد مساحة الصف الواحد على اربعة امتار طولا وثلاثة امتار عرضا، بمعدل ٨٥ الى ٩٠ تلميذاً في القاعة الواحدة ، يجلس كل خمسة طلاب على مقعد واحد ، والباقي يفترش الارض ، وفي احسن الاحوال يضع صندوقا خشبيا او (كارتونة) على بلاط الصف .. الجو في القاعة بارد جدا والرطوبة تعشق جدرانها ، والنوافذ –بالتأكيد – مكسورة ، والهواء البارد كما الاغنية المشهورة لسعدون جابر "الهوى يلعب بالكذلة "!!

سألت التلميذات في الصف الخامس الابتدائي اللائي كن محجبات من دون استثناء – ربما أجبرن على ذلك – هل تشعرن بالبرد ؟ الاجابة كانت ممزوجة بالخجل والخوف من ان تعاقبهم الادارة " نعم نشعر بالبرد ". كيف لا ، وانا شعرت بلسعة البرد منذ وقوفي في باب القاعة التي لم ألحظ إن كان فيها باب ام لا ؟!

في داخل الحدث ...

القاعات الدراسية للمرحلة الاولى اكثر كثافة بعدد التلاميذ من غيرها ، والاطفال الصغار يلتصقون بالسبورة ويجلسون على الارض ، والمعلمة تمسح بثيابها الفضفاضة – من دون قصد – بعضٍ الكلمات من على السبورة لأنها لا تجد مكاناً تقف فيه .. اريد ان نتذكر قبل ان نكمل بأن كل هذا يحصل ونحن ما زلنا في بغداد ولم نخرج الى كوكب آخر – كما تخيلنا ذلك –

المعلمة تقول : ان معظم اولياء امور التلاميذ من (الحواسم) ، قدموا من خارج المنطقة واستقروا في بيوت عشوائية بسبب التهديدات ، وغالبيتهم يعملون في جمع النفايات وعلب البيبسي وهم لا يعرفون القراءة والكتابة .

المعلمة الصغيرة في العمر يبدو عليها علامات الجزع من وضع المدرسة المأساوي وهي تؤكد بأنهم لا يستوعبون الدرس– تقصد التلاميذ – لأن أعدادهم غير مسبوقة في كل العالم .."نحن ١٧ معلماً ومعلمة فقط، وهم يعتمدون بشكل رئيس على المدرسة لأن الأهالي أُميّون" .

الجدير بالذكر ان نسبة الأمية في العراق ارتفعت الى معدلات مخيفة وصلت الى خمسة ملايين، معظمهم من النساء ..ولا تخفي المعلمة التي رفضت ذكر اسمها عدم قدرتها على السيطرة في القاعة " لا أتمكن من اعطاء الدرس ولا قيادة التلاميذ ..أعداهم كبيرة جدا ".

اصرارهم على الدراسة امر غريب ،على الرغم من سوء الحال والقاعة الدراسية مليئة بالتراب الذي يرتفع فيه الغبار كلما تحركت قدم احد التلاميذ ، إلا انهم لا يزالون يريدون التعلم .. ولا ننسى ان منظمات المجتمع المدني قدّرت نسب تسرب الاطفال من المدارس بمليون فرد، بينما تعطي الوزارة أرقاما أقل من ذلك!

مدارس بالاسم فقط

الكل مشترك في معاناة المدرسة، الادارة الضيفة على المدرسة الأصلية لا يحق لها بناء طابوقة واحدة – حسب أوامر وزارة التربية – وهم بذلك يبقون تحت رحمة المدرسة الاصلية .. يقول احد المعلمين : تجربة شطر المدارس الى قسمين حدثت بسبب ازدياد عدد التلاميذ.. المدرسة كانت تضم ٢٤٠٠ تلميذ ، ثم فُصلت الى مدرستين بالاسم فقط ، ولكنهما في بناية واحدة ". المياه دوما مقطوعة والكهرباء لا تسأل عنها ، يضيف المعلم الذي فضل عدم ذكر اسمه: " الحمامات قذرة ، ومفرغاتها ترمي بالروائح الكريهة على غرفة المعلمات.. ليس لدينا عمال نظافة "!

أشارت اميال الساعة في تلك اللحظة الى الثانية عشرة ظهرا ، ونحن نتحدث مع المعلم ، دب ضجيج وفوضى عارمة ملأت أرجاء المدرسة ، الكل ينادي بأعلى صوته " انتهى الدوام "لم يكن هناك جرس للتنبيه الى ان الدوام انتهى لأن الكهرباء مقطوعة كالعادة.. تركنا المعلم من دون ان يودعنا .. اربع ساعات في الجو البارد والجلوس على الارض قضاها اطفال صغار في حضن مدرسة بائسة!

بدأ دوام المدرسة الاخرى ، اصطف التلاميذ على الحائط استعدادا للمغادرة، دفعوا الى خارج المدرسة بفوضى ، ويحاول المعلمون عبثا ان ينظموهم في طابور ..اسمع كلمات تخرج من أفواه بعض العاملين والمعلمين موجهة للاطفال " غبي ...أثول ..إمشِ " .

يقول للأطفال: إلى الجحيم

الصدمة الأخرى كانت بعد خروج التلاميذ من بوابة المدرسة .. منظر مريع ١٢٠٠ تلميذ يخرجون دفعة واحدة ، ينتظر عدد اكبر – تلاميذ المدرسة الاصلية – يقفون بجوار البوابة ، يركض المعلمون والشرطة الى الشارع ينظمون خروجهم خوفا من ان تدهسهم السيارات المارة في زقاق ضيق لا يتعدى عرضه الثلاثة امتار، مليء بالمياه الآسنة ، يندفع سائق "ستوتة" مراهق ، يصدم بعربته الحديدية بعض التلاميذ الفارين من سجن رطب ، طلبنا منه التريث بالقيادة ولكنه يقول: " ماذا أفعل.. الى الجحيم " – او بعبارة اخرى لا يصح نشرها –

التلاميذ الصغار يركضون صوب كاميرا التصوير التي يحملها زميلنا المصور ، يطلبون منه ان يأخذ لهم بعض اللقطات مع زملائهم ،انهم محرومون من فسحة اللعب ، دروس الرياضة والنشيد والفنية غير موجودة فعليا، وظلت حبراً على ورق جدول الدروس . وحسب قول احد المعلمين: "لو أخرجناهم لساحة اللعب لتحولت المدرسة الى سوق هرج".

وفي خضم الفوضى في الشارع المقابل للمدرسة اقتربت مني طفلتان ترتديان ملابس قديمة ضمتا جسديهما الى بعضهما ، ليشعرا بالدفء ، ويزيدا من حميمية الصداقة التي تجمعهما ، قالت الاولى ببراءة: " هل ستفصلون الصفوف الدراسية التي تضم عددا كبيرا من التلاميذ"؟ اجبتها بسؤال ..لماذا ؟ قالت : " لا أريد ان افترق عن صديقتي .. برغم اننا نعاني من ضيق المكان ، لكن لا نريد الانفصال.. أزلت مخاوفها واوضحت لها بأن المدرسة ستبقى على حالها ولن يخفّ زحامها – ما دام الحال هو الحال –

مدارس يخنقها الزحام الشديد

(فيزة) الدخول الى المدارس

مدير مدرسة الايمان –الاصلية – رفض الحديث معنا لأننا لا نحمل سمة المرور الى المدارس من وزارة التربية ، لكنه زفّ لنا خبرا ايجابيا – او هكذا اعتقد – وقّعت على إزالة المدرسة .. وسوف تهدم خلال الايام المقبلة ..عجبا واين سيذهب ٢٤٠٠ تلميذ ؟! المدير يقول: انهم سيدمجون بمدرسة اخرى ثنائية الدوام ..المحصلة تكون دواما ثلاثيا، تحصل كل مدرسة على ساعتين فقط من الدراسة!

فيما تقول سحر حربي مسؤولة الاعلام التربوي بأن الوزارة لا دخل لها في بناء المدارس وتحويل تلاميذها في منتصف السنة ، عازية في حديث لـ"المدى " السبب الى المقاولين والاجراءات الرسمية التي تتأخر في انشائها.

تركنا المدرسة ونحن نرى مشاهد التلاميذ المنتشرين في الشارع والجالسين بعضهم على الرصيف ...طفل يسقط في احدى "الجيف " ، وآخر يركض وراءه راعي أغنام بعصا طويلة – يبدو انه ضايق احد الحيوانات – ويتجمع عدد منهم على شاحنات نقل كبيرة وقفت في كراج خاص امام بوابة مدرسة الحق الابتدائية في المنطقة نفسها ، وهم يصعدون وينزلون من السيارات الكبيرة من دون ان يمنعهم احد .

طفلة تموت من شدة الزحام

المدارس في تلك المناطق المنسية ، معظمها مزدوجة الدوام ، او ثلاثية ، ويخرج تلاميذها بما يشبه التظاهرة ، وقد توفيت احدى الفتيات في مدرسة طلحة في منطقة الباوية ، المدمجة مع مدرستين ابتدائيتين اخريين (الاستقلال والانبثاق) اثناء خروجها من الدوام لشدة الزحام – كما ذكر لنا الاهالي –

والحال أسوأ في مدرسة الاستقامة الابتدائية المدمجة مع مدرسة اخرى التي تقع بوابتها في داخل سوق حي النصر . التلميذ والمعلم لكي يذهب الى المدرسة يجب عليه ان يمر في سوق شعبي ببسطيات مبعثرة لبيع الخضراوات ، ويجلس بالقرب من البوابة بائعو السمك ، والمعلم تختلط كلماته " دار دور ...طماطة بربع ..خوش سمج "!

لا ترم الأزبال هنا...

لن نبعد كثيرًا عن حي النصر...منطقة العبيدي ، لا تختلف في سوء الخدمات ، وطفح المجاري – ان وجدت – ومدارسها قديمة ...إحداهن التي لفتت انتباهنا كانت بناية تضم مدرستين (صفية للبنات –اعدادية ،والبلسم ابتدائية للبنات) ، كُتبت على جدرانها عبارات " لاترم الزبالة هنا يا ....." ، وعلى الرغم من كلمات العبارة "الخشنة " كان يحيط السياج الخارجي النفايات .. الغريب في هذه المدرسة وحسب قول احدى المعلمات التي رفضت ذكر اسمها ان " الاهالي القريبين من المدرسة يرمون الازبال في ساحة المدرسة " .. الأغرب كان الاهالي الذين يستخدمون المدرسة كمكب للنفايات تدرس بناتهم في المدرسة نفسها ، وعلى الرغم من المطالبات والشكاوى المستمرة إلا ان الامر لم يتغير.

وتضيف المعلمة: " نعاني في المدرسة من عدم وجود ماء صالح للشرب ...انه ماء زراعي "خابط" . المدرسة تضم ساحة عملاقة ولكنها فارغة ولم تستغل في انشاء بناية جديدة ، او حتى للعب ،لأن معلمة الرياضة الوحيدة و المنقولة حديثا الى المدرسة طلبت بعد يومين من الدوام "اجازة امومة "!

(٥) آلاف مدرسة .. وفضيحة الهياكل الحديدية!

الى ذلك كشفت وزارة التربية في تقرير لها تسلمت (المدى) نسخة منه ، عن إنجازها أعمال بناء وترميم (١٠٨٥٨) مدرسة في ١٥ محافظة خلال الثمانية أعوام الماضية.

وقال مدير عام الابنية المدرسية حبيب عبد الحسين الشمري : انه تم بناء (٢٦٧٥) مدرسة في عموم البلاد ، شملت مدارسٍ سعة (٦ صفوف ، ١٢ صفا ، ١٨ صفا ابتدائياً مع ١٨ صفاً ثانوياً إضافة الى مخازن جملونية ومدارس مهنية ورياض للأطفال) .

وفي السياق ذاته قال المهندس جاسم حسين جاسم مدير قسم المتابعة والتقييم : تم ترميم وتأهيل (٨١٨٣) مدرسة موزعة على (١٥) محافظة ، تضمن الترميم (إضافة أجنحة دراسة بسعة (٢ ، ٣ ، ٦ صفوف ، مع وحدات صحية وتأهيل اخريات) ، منوهاً الى وجود (١١١٧) مدرسة قيد التنفيذ في جميع انحاء البلاد حيث ستدخل الخدمة قريبا.

وأشار جاسم الى وجود ما يقارب الـ(٥٠٠) مدرسة ستبنى بأسلوب البناء (الجاهز والتقليدي) ضمن خطة الوزارة للقضاء على المدارس الطينية والآيلة للسقوط، وهي في طور المباشرة.

الجدير بالذكر ان مشروع الأبنية الجاهزة او ما يسمى بالبناء السريع انتهى بفضيحة، الذي كان من المؤمل ان يحل جزءا من ازمة البنايات المدرسية بعد ان مر اكثر من سنتين من دون ان يتم المشروع، والذي يضم مئتي مدرسة وفق المنحة الايرانية، وكان من المقرر ان ينتهي خلال ستة اشهر.

فيما اكدت لجنة النزاهة في البرلمان ان الهياكل التي وضعت لبناء المدارس قد تلفت لأن مدة صلاحيتها قد انتهت ولم تعد صالحة للانشاء.

وكان من المفروض استدعاء وزير التربية السابق خضير الخزاعي الى البرلمان لاستجوابه حول هذا الموضوع ، ولكن هذا لم يحدث !

فيما أعلنت وزارة التربية في وقت سابق أنها بدأت ببناء ٥ آلاف مدرسة في جميع المحافظات ماعدا إقليم كردستان .

وقال المتحدث الرسمي باسم الوزارة وليد حسين في تصريحات صحفية: إن " وزارة التربية قررت بناء ٥ آلاف مدرسة بواسطة نظام الدفع بالآجل الذي تتحمله الأمانة العامة لمجلس الوزراء " .

كتب منهجية في الساحة الخلفية للمدرسة

مدرسة يُقرّر هدمها في منتصف العام الدراسي.. وتحويل طلابها الى أخرى بدوام ثلاثي

تجمع مياه المجاري في مدرسة بالعبيدي

في حيّ النصر.. مدرسة وسط سوق الخضراوات.. والطلاب يدرسون على صوت بائع السمك!